الفصل الأول

عصر ابن الرومى أو القرن الثالث للهجرة

"كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة، كان عهد اليقين والإيمان وكان عهد الحيرة والشكوك، كان أوان النور وكان أوان الظلام، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط: بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا شيء قط، وسبيلنا جميعا إلى سماء عليين وسبيلنا جميعًا إلى قرار الجحيم. تلك الأيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها، وإلا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات"

هذا هو عصر الثورة الفرنسية، وهكذا استهل وصفه الكاتب الإنجليزى "شارلس دكنز" فى بداية قصة المدينتين، إلا أنك قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وانت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى تواريخ الإنتقال والإضطراب، ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة فى دولة الإسلام الشرقية، وهو القرن الذى لا يوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات، وإن اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان

إن كان لكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث للهجرة كان أوان النماء للدولة العباسية جاء بعيد التمهيد وقبيل النضج والذبول. ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤسسو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد. وكانت الدولة فى إبانه أشبه شيء بالمرج الأخضر الذى ينمو فيه الحب والفاكهة والشوك والعشب المسموم: خضرة زاهية ناضرة ولكنها وسيمة شائهة ومصلحة مهلكة ومرجوة مخشية، ومختلط فيها الغذاء

والسم اختلاطًا لا سبيل فيه إلى التنقية والتمييز. فهو العصر الذى بلغ كل شىء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم. أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما تقدموا صالحًا أو طالحًا على السواء. فبدأ التمام وبدأ النقص فى حين واحد، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم إلى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والإنذار، فكان نسيجًا من ألوان الزمان لا تشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم

وليس بنا أن نسهب فى وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه فإنما يعنينا منه ما يحيط بفرد واحد هو الشاعر الذى نترحم لحياته. فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحى تلك الحياة، والقليل الوجيز من ذلك التاريخ كاف لتوضيح ما نريده فى هذا المقام

حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومى فى سنة إحدى وعشرين ومائتين وتوفى فى سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة. فهو قد أدرك فى حياته ثمانية خلفاء هم: الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد الذى توفى بعد ابن الرومى ببضع سنوات. فإذا أردنا أن نحيط بالحالة التى كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الإلمام بالمصير الذى صار إليه بعض أولئك الخلفاء. فمنهم واحد قتل وهو المتوكل وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم: المستعين والمعتز والمهتدى، قيل أن من الآخرين من مات مسمومًا. والبقية الذين ما توا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتقاض أو غارة خارجية، ولم يكن حظ ولاة العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير. فقل بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاء الأموال.

وكان الخلفاء عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور،

أما الأمـراء والوزراء فكانوا عرضـة للغضب والكـبد من جمـيع هؤلاء ويزيد عليـهم الخلفاء قـدروا على البطش وأمنوا على أنفـسهم دسائـس المشاغبـين والمنافسين.

إن اطراد البطش بالخلفـاء والوزراء لا يدل على أمان أو انتظام فى سـير الأمور، ولكن هذا كلـه لا يزال ضعيف الدلالة على مـا كانت عليـه حقيـقة الحال فى حكومة تلك الأيام. قـد يعوزنا أن نعلم كيف كان المقـتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كـيف كان الفساد يجرى فى خلائق الـنفوس كما كان الفساد يجرى فى سياسة الدولة وأعـمال الدواوين. فقصارى ما يدل عليه اطراد العدوان أن شريعة الحكم لا ترعى وأن الحكام لا تتقى، إلا أن الحكومة قد تهـزل هيبتـها وتبطل شريعـتها ثم تبـقى للناس بعد ذلك حرمـات أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون عليها: تبقى لهم حرمات المروءة وآداب العرف والدين. أما فى ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع فى بعض حوادث الفتك مبلغًا لا حرمة معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة.

فمن أمـثلة ما كان يصيـب الخلفاء ما حدث للمـعتز حـين طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالا: قال الطبرى فى أخبـار سنة خمس وخمـسين ومائتـين: "فلم يرعه إلا صيـاح القوم من أهل الكرخ والدور وإذا صالح بن وصـيف وبايكباك ومحمد بن بـغا المعروف بأبى نصر قد دخلوا فى السلاح فجلسوا على باب المنزل.. ثم بعثوا إليه أن اخرج إلينا فبـعث إليهم أنى أخذت الدواء أمس وقـد أجفلنى اثنتى عشـرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف، فإذا كـان أمر لا بد منه فليدخل إلى بعضكم، فدخل إليه جماعة مـن أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجروا برجله إلى باب الحجـرة. قال: وأحسـبهم كانوا قـد تناولوه بالضرب بالدبابيس فـخرج وقمـيصه مـخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبـه فأقامـوه فى الشمس.. فجعلت أنظر إليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم

فيه.. ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده.. فذكر أنه لما خلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه، جصصوا سردابًا بالحص السخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتا، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان فى هذه السنة. فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لا أثر فيه".. ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ما حدث لمحمد بن عبد الملك الزيات فى أيام المتوكل وذكره الطبرى فى أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع: "لم يزل أيامًا فى حبسه مطلقًا ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئا، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير، فمكث أيامًا ثم سوهر ومنع من النوم: يساهو وينخس بمسله. ثم ترك يومًا وليلة فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنبًا فأتى به فأكل ثم أعيد إلى المساهرة ثم أتى بتنور من خشب فيه مسامير حديد.. وكان هو أول من عمل فعذب به ابن أسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أيامًا. وذكر عن الدندانى عن الموكل بعذابه أنه قال: كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يده إلى السماء جميعًا حتى يدق موضع كتفيه ثم يدخل التنور فيجلس، والتنور فيه مسامير حديد وفى وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح، فيجلس على الخشبة ساعة ثم يجيء الموكل به فإذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائمًا كما كان ثم شدوا عليه. قال المعذب لى: خائلته يومًا وأريته أنى أقفلت الباب ولم أقفله. انما أغلقته بالقفل ثم مكثت قليلاً ثم دفعت الباب غفلة فإذا هو قاعد فى التنور على الخشبة، فقلت أراك تعمل هذا العمل؟ فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه فما مكث بعد ذلك أيامًا حتى مات، واختلف فى الذى قتل به فقيل بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون. فأصبح ميتًا قد

التوت عنقه ومتغت لحيته، وقيل مات بغير ضرب، وذكر عن مبارك المغربى أنه قال: ما أظنه أكل فى طول حبسه إلا رغيفًا واحداً، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال: وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يا بن عبد الملك! لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت فى عافية حتى طلبت الوزارة! ذق ما علمت بنفسك! فكان يكرر ذلك على نفسه، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله" والذى روى عن التمثيل بالمذنبين - ولاسيما فى أيام المعتضد - أفظع من هذا وأعنف. وكأنما كان التفظيع بهم فرجة يتفننون فى ابتداع أشكالها وأساليبها ليلهوا بها النظارة ويذكروها فيما يذكرون من مشاهد المجون والفكاهة!

أساس هذا الشر كله سببان غالبان هما القطيعة بين بنى العباس والعرب، ونظام الإقطاع الذى تمادى فيه بنو العباس حتى انتهى إلى تصدع العالم الإسلامى وتشبعه فى مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة

فبنو العباس كانوا قومًا موتورين طال عليهم الظلم واحتمال المكاره وكانوا ينقمون على العرب أنهم خذلوا آل النبى فى نضالهم مع بنى أمية وباعوهم بيع السماح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والوعود. فلبثوا زمانًا يسامون الذل ويلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبى نسائهم وهم آل النبى الذى لم يسأل قومه على الهداية أجراً إلا المودة فيهم، وابتلوا بكل محنة فى دولة الأمويين ولا من يغضب لهم أو يجنح إليهم. ولقد كان بنو العباس شركاء بنى على فى الوتر وإن كان المصاب فى معظمه مصاب هؤلاء لأنهم كانوا جميعًا من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال مل منتم إليه. ثم لما قامت لهم آخر الأمور دولة لم تقم على أيدى العرب وهم أولى الناس أن ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم، وإنما قامت على أيدى الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية، فامتلأت نفوسهم حفيظة على العرب

وانقطع ما بينهم وبينهم من صلة المودة والطمأنينة وشعروا لهم فى نفوسهم بما يشعر به المظلوم لمن ظلموه أو أعانوا عليه ظالميه، والموتور إذا خاب ظنه فى إنصاف الناس وساء رأيه فى أمانتهم وإخلاص طويتهم لم يعرف لهم حقًا ولم يرع لهم ذمة ولم يجر الأمر بينه وبينهم إلا على المنفعة والرهبة دن الثقة والمودة، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التى اشتهر بها أساطين بنى العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم، وجاء اتصالهم بأجلاف الأعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضروبًا من المثلات التى تعودها هؤلاء الأعاجم فى وحشية البداوة

قيل أن العباسيين إنما قربوا إليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة لهم على نصرهم إياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم. . والحقيقة أن بنى العباس كانوا يتوجسون من العرب قبل أن تقوم لهم دولة وتنتظم لهم عقدة، وكان إبراهيم بن محمد على صاحب الدعوة قبل السفاح يكتب إلى أبى مسلم: "إن استطعت إلا تدع بخراسان لسانًا عربيًا فافعل، فأيما غلام خمسة أشبار تتهمه فاقتله" فهو الحذر من العرب الذى أبعد هؤلاء واخملهم فى دولة بنى العباس، وليست مكافأة الفرس ومن إليهم، ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه فارسية، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن فى إقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم، ثم جاء المعتصم - وكانت أمة تركية - فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس فى جيش الدولة وولاة أمرها فضلاً عن اختلاف الأجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء، وتفاقمت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء، وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها فشغب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعا لو يملكهم خليفة

قوى يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير: "نجيء بمن نهابه ونفرقه فتبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضنا فقتلنا أنفسنا" ثم اشتد إشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافة ولا يتولاها أحد منهم، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسمها مثل هذا التدبير العاجل الى لا يطول الاستقرار عليه

كان أمر الدولة إذن قائمًا على سوء الظن والدسيسة، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا إخلاص الفرس لبنى العباس حتى خيل إلى بعض قراء التاريخ أن بنى العباس كانوا خليقين أن يطمئنوا إلى جهة واحدة من شعوبها الكثيرة، وما كان الأمر كذلك إلا فى الظاهر الذى لا ينخدع به رجال من المحنكين المتحذرين كرجال الدولة العباسية، فما نظن أبا مسلم نصير الدولة الأكبر إلا كان طامعًا فى الخلافة متربصًا بأوليائه الدائرة، ولهذا طمح إلى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه إلى العباس وبدأ باسمه فى مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس فى موسم الحج واستعد للملك استعداده الذى لا يخفى على أوليائه، وما نظن البرامكة إلا كانوا يفعلون فعل أبى مسلم فى شىء من التبصر وطول الأناة..

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تعوز العظماء فى أمة الفرس أسباب الدعوة والانتقاض؟ فإن كان الأمر أمر الطمع والقوة فهاهم الفرس أصحاب القوة التى وصل بها العباسيون إلى الخلافة، وإن كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فهاهم أبناء على عندهم يدعون لهم إذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعًا ومجيبًا بعد ما أصاب العلويين على أيدى بنى العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب فى دولتهم من إهمال وإطراح.

كان حكم بنى العباس حكم الموتور المستريب ولا يكون إلا هكذا الموتور المستريب. وأطبق نظام الإقطاع على هذه الآفة فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع لثقة بين إنسان وإنسان من العاملين فى الحكومة.

نظام الإقطاع

فنظام الإقطاع نظام معيب ولكنه يبقى مستور العيوب ما بقيت هيبة الدولة وسطوة القائمين عليها. فإذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر فى أركان الملك فلا يدعه إلا وهو مفكك الأجزاء معتور بأسباب الفناء.

فكان الولاة - والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة فى عنفوانها - يؤدون المال الذى عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالإصلاح لتعزز عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة، فلما تقلقلت الخلافة وارتاب الولاة فى أمرها أهملوا الإصلاح وتهافتوا على جميع الأموال وحبسوا أرزاق العمال وأغلقوا مرافق الرعية، فخرجت الأرض وعم السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسيسة، ولجأ الخلفاء إلى اغتيال الولاة والكتاب وكل من بأيديهم مال الجباية. فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبئات، وأصبحت الكتابة والوزارة وما إليهما من وظائف الدولة كأنما هى رخصة بالظلم والغضب ريثما يحتاج الخلفاء إلى ما جمعه الوزراء والكتاب فيحصلوا على المال من هذه الطريق! وبلغ من شيوع الاختلاس أن الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال وأصحاب الوظائف فى أرزاقهم فكانوا لا يؤدون رزق عامل أو صاحب وظيفة إلا إذا اقتطعوا منه أتاوة لأنفسهم واستكتبوه توقيعه باستيفاء رزقه، غير مستثنين من ذلك أحداً حتى أخوة الخليفة وأهل بيته. بل قد بلغ من شيوع الاختلاس إن أصبح سراً مذاعاً لا يكتم فى حضرة الخليفة نفسه ولا يبالى الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله: فلما عرض الخليفة المهتدى لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال "معجلاً ومؤجلاً" قال له سليمان: "يا أمير المؤمنين! هذا قول لا يخلو من أن يكون حقًا أو باطلاً، فإن كان باطلاً فليس مثلك من يقوله، وإن كان حقًا وقد علمت أن الأصول

محفوظة فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل إليهم من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال؟"

وراجت تجارة الارتشاء من العمال وعمال العمال حتى بلغت أقصى ما عساها أن تبلغه فى أواخر أيام الدولة، فقيل بلغت أقصى ما عساها أن تبلغه فى أواخر أيام الدولة، فقيل عن الخاقانى فيما رواه الفخرى أنه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة وقبض من كل واحد منهم رشوة! فإن كان قد بقى لحسن الظن بين ولاة الأمر بقية فهذه السرقات والرشاوى والمصادرات والنكبات قد أتت على هذه البقية، فلم تدع بينهم إلا علاقات الحذر والمساومة والتربص وفساد الطوية. ولا جرم تبيض الفتنة وتفرخ فى بيئة كهذه بين جند يشغبون وعمال يدلسون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون ورعية تمزقها براثن الرعاة وملوك لا يأمنون على الملك ولا على الحياة

وقد حضر ابن الرومى فى زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه وترك لنا فى شعره مثلاً مما حدث فى واحدة منها وهى فتنة الزنج التى اختلطت فيها الأسباب السياسية والدينية والإجتماعية، فقال يصف ما حل بأخل البصره على أيدى الثائرين:

كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ... ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا الشيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام

كم فتاة مصونة قد سبوهم بارزا وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام

ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهونها على الناس إلا اتساع أرجاء البلاد الإسلامية وتفرق الفتن فى تلك الأرجاء، وإلا فترات من القوة يتاح فيها للدولة فى الحين بعد الحين خليفة حازم الرأى نافذ العزيمة فتسكن غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاة والعمال بعض الاستقامة، وتعلوا هيبته فيخشاه المغيرون على الدولة من داخلها وخارجها وتفئ الرعية إلى ظله زمنًا حتى يحم أجله فتعود الأمور إلى ما كانت عليه

الحالة الإجتماعية

تنتهى الفوضى السياسية - إذا تطاول بها الزمن - إلى الخراب والعسر ونضوب الأرزاق بين جميع الطبقات عاليها وهابطها على السواء. ولكن الفوضى لا تمنع الترف إذا هى جاءت فى البداية أو ترددت فى الفترة بعد الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والإفساد. فلا يندر أن يجتمع الترف والفوضى فى طبقات من الدول المتداعية التى ورثت السلطان القديم والثروة الواسعة وظاهر الحضارة وأفانين المعيشة الفاخرة. بل كثيرًا ما تكون الفوضى من أسباب الترف والمغريات به، لتعويدها النفوس أن تخلد إلى الدعة واغتنام اللذة وأن تحجم عن المساعى الجليلة والآمال الرفيعة. يأسا من كل غاية وشكا فى مصير كل نعمة، وعلمًا بأن الحياة لا تجرى على وتيرة ولا تنتظم فى سياق

وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف أو قرن الخطر و "التسلية". بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت إلى العصر جراثر العصور الأولى فجنى ثمارها خللاً فى السياسة وبذخا فى المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف وكلها استسلام.

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو فى

هذه الأمم وفى الأمم التى اتصلت بها من ترك وهند وصين، وتجمعت الأموال المستحيرة فى أيدى الأمراء وجباة الخراج وأصحاب التجارات الغادية الرائحة فى البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات، فكثر المترفون المنعمون وشاعت فنون الخلاعة والمجون، وأصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرفه علماؤه ويقرب أهله إلى الخلفاء وذوى الرئاسة حتى الرقص وما إليه فضلاً عن الفناء والسماع. نقل المسعودى فى مروج الذهب أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندمائه: "صف لى الرقص وأنواعه والصفة المحمودة من الرقاص واذكر لى شمائله. فقال المسئول: يا أمير المؤمنين! أهل الأقاليم والبلدن مختلفون فى رقصهم من أهل خرسان وغيرهم. فجملة الإيقاع فى الرقص ثمانية أجناس: الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثانى وخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقيله، والرقاص يحتاج إلى أشياء فى طباعه وأشياء فى خلقته وأشياء فى عمله. فأما ما يحتاج إليه فى طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الإيقاع وأن يكون طالبه مرحًا إلى التدبير فى رقصه والتصرف فيه، وأما ما يحتاج إليه فى خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتمايل فى الأعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق.. ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية ولطافة الأقدام... ولين المفاصل وسرعة الانفتال فى الدورات ولين الإعطاف، وإما ما يحتاج إليه فى عمله فكثرة التصرف فى ألوان الرقص وإحكام كل جزء من حدوده وحسن الإستدارة وثبات القدمين على مدارهما، واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها حتى يكون فى ذلك واحدًا. ولوضع القدم ورفعها وجهان أحدهما أن يوافق بذلك الإيقاع والآخر أن يتثبط به. فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الإيقاع فهو من الحب والحسن سواء، وأما ما يتثبط به فأكثر ما يكون وأحسن فليكن ما يوافق الإيقاع مترافعًا وما يتثبط به متسافلاً".

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف. حتى انتهى القرن وأقبل ما بعده وللقوم فى آداب المجالس وآداب المائدة ما لم نسمع بمثله عن رومة وبيزنطة، فكان من رؤسائهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة كما قيل عن الوزير المهلبى أنه "كان من ظرفه فى فعله ونظافته فى مأكله أنه إذا أراد أكل شىء بمعلقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف فى جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجًا مجرودًا - وكان يستعلمه كثيرًا - فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام فى الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى يفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية"

واقتدى الأوساط والفقراء بالعلية والأغنياء فكثرت بيوت القيان والخمر وأدمنت المعاقرة صبوحًا وغبرقًا وشاع اقتناء الجوارى والغلمان واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها، فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الأسماع، ولاسيما حين أصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس فى هذه الأفانين وهم موضع النعمة التى تصبو إليها نفوس المحرومين، وفى إحدى قصائد ابن الرومى البائية وصف لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من نفس الشاعر، وذلك حيث يقول:

أترانى دون الأولى بلغوا إلا ... مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى فى النفوس والأحباب
خير ما فيهم ولا خير فيهم ... أنهم غير آثمى المغتاب
ويظلمون فى المناعم واللذ ... آت بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السـ ... ـامع والطائفات بالأكواب

***

من جـوار كـأنهم جـوار يستسلسلن من ميـاه عـذاب
لابسات من الشفوف لبوسا كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضىء سناه شعلاً يلتهبن أى التهاب

* * *

لهف نفسى على مناكير للنـ ـكر غضاب ذوى سيوف عضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحى ذات طهر ترابها كالملاب[1]
من كلاب نأى بها كل نأى عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
وأثبات على الظباء ضعاف عن وثاب الأسود يوم الوثاب
شرط خولوا عقائل بيضا لا بأحسابهم بل الإكساب
من ظباء الأنيس تلك اللواتى تترك الطالبين فى انتصاب
فإذا ما تعجب الناس قالوا هل يصيد الظباء غير الكلاب؟
أصبحوا ذهلين عن شجن النا س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
فى أمور وفى خمود وسمود[2] وفى قاقم وفى سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقـ ـم ومن سندس ومن زرياب[3]
فى حبير منمنم وعسير وصحان فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بسا تين تمس الرءوس بالأهداب
ليس ينفك طيرها فى اصطحاب تحت إظلال أيكها واصطخاب
من قرينين أصبحا فى غناء وفريدين أصبحا فى انتحاب
بين أفنائها فواكه تشفى من تداوى بها من الأوصاب

---

(١) طيب يشبه الزعفران. (٢) أسماء أنواع من الغراء. (٣) ماء الذهب.

فى ظـلال من الحـــــــرور وأكـنا   ن من القــر جـمــة الحـجــاب

عندهم كل مــا اشــتــهـوه ومن الآ   لات والأشــربــات والأشــواب(١)

والطـروقـــات والمراكب والـولد   أن مــثل الـشـــوادن الأســراب

واليلـنجـوج(٢) فى المجــامــر   والند ترى نشـره كمـثل الضبـات

والغـــوالى وعـنبــر الهـنـد والمسـ   ـك على إلهام واللحى كـالخضاب

ولديهـم وذائل الفـــضض البـيــ   ـض تبــاهى سبــائك الأذهاب

لم أكـن دون مـــالـكى الأمـــلا   ـك لو أنـصف الزمـــان المحـابى

ففى هذه القصيدة وصف واف لمناعم العـيش فى بيوت الطبقات الموسرة ومعظمها من "الموظفين". وفيـها - مع هذا الوصف الوافى - تفسير واضح لتـهالك الناس على العـمالة والكتـابة وسـائر الوظائف التى يأتى رزقهـا من المرتبات والجبايات والرشى والأسلاب، وفيهـا - مع هذا وذاك - تفسير لنقمة الطبـقات المحـرومة ولـلثورات التى كـانت تهب من هنا وثم لرد الظلامـات وإنصـاف الفـقـراء. وأى شـىء أدل على طلب الثـورة والتلهـف على قلب الأحـوال والتأهب لتلبـية الداعـين إلى الشـغب من قول شـاعر وديع كـابن الرومى:

لهف نـسى على مـناكـــيــر النـ   ـكر غضـاب ذوى سيوف غـضاب

تغـسل الأرض بالدمـاء فتـضـحى   ذات طهــــر ترابهـــا كــــالملاب

من كـــلاب نأى بهـــا كل نأى   عن وفـــاء الكلاب غـــدر الذئاب

لا جرم يكون ذلك العصر عصر الحـيرة والانتظار، ولا جرم تتأهب فيه النفوس لدعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدى المنتظر والمصلح الأكبر الذى يغسل الأرض بالدمـاء... ولا جرم يكون ذلك العصر هو عـصر بابك

(١) جمع شوب وهو ما يخلط بغيره.   (٢) عود للتبخر به.

openkandil.com

الخرمى وداعيـة الزنج والقرامطة وغيرهم من الثـوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء المنزوفين بالدعوة إلى المساواة والمـرد على الحكام، وكان ذلك على أكثره فى بلاد الفرس حيث بقى الفلاحون كما كانوا فى عـهد الأكاسرة يسامون سموم الأنعام ويستنزفون كما كان يستنزفهم الأمراء والملوك المؤلهون فى غابر الزمان، ثم كان ذلك على أكثره فى المرافئ الوثغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع ويترفع السعر ويشتد التنافس بين الطبقات.

على أن هذه الأحداث كـانت تمر بالدولة وهى باقية سليمـة منها بعض السلامة، لأنها - كما أسلفنا - كانت تتلقـاها متفرقة فى الأماكن والأوقات، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والإفساد فى الأرض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة أخـرى بامس المارق أو الفاجر أو الخـبيث، فينسى اسـمه الأ,ل ولا يذكر إلا بهذا الاسم المنتحل، وكانـت هذه الثورات بتراء ليست لها وجهة مـرسومة ولا خطة معلومـة. فكانت تعوزها عناصر الدعـوة المشروعة المستـجابة التى تلتف بهـا الجماهـير وتستـبسل فيـها، فـلا توشك الثورة أن تستفحل حتى تفتر وتضمحل وتثوب الأمور إلى نصاب.

هذا والقصور سادرة فى غيها قلما تحس لهذه المشكلات الاجتماعية أثراً أو تتحـرك لعلاج أسـبابها الدفـينة إلا فى العهـد بعد العهـد والصحـوة بعد الصحوة، ,لا تراها فيـما عـدا ذلك إلا غارقة فى بذخـها مـفتنة فى زينتـها ولهوها: المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء يستبقون فى تجويد أساليب المعـيشة وجلب ألوان المسـرة، ومجالس الطرب تدخل على المجـتمع العـالى بعـرف جديد من الآداب والأذواق، فـلا يكون الأدب إلا أدبهـا ولا الذوق إلا ذوقهـا ولا يحسب الوزير وزيراً ولا الرئيس رئيـساً إن لم يكن مع ذلك نديماً يحسن املجالسة والمفاكهة ويـصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة، فأصـبحت المنادمة باب السلوك إلى الملوكـوسلم الوصول إلى الخطوة

عندهم والدالة عليهم، والنتض والإبرام فى شئون الدولة بالزلفيإلى أهوائهم، واحتاج إلى علم هذه الصناعة كل ذى خطر فى الدولة لما كان عسى أن يحتاج إليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه فى ساعات صفوه وغضبه ونوبات إقباله وإعراضه، وكان أعلى ما يرجوه صاحب العلم والأدب والفضل ولاكياسة أن يصبح نديمًا لملك أو مربيًا لابن ملك. وهما عملان متقاربان متشابهان فى الآلة والكفاءة. ولم يكن من السهل أن يحذقهما الأديب لأنهما صناعة تجمع صناعات وفن يلم بشتى فنون، وإليك مثلا مما كان يعرفه النديم الذى كان يرتقى به الحظ إلى مجالسة الأمراء والخلفاء. نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن أمالى جحظة النديم أن يزيد بن محمد المهلبى قال: "كنت أرى على بن يحيى المنجم فأرى قبح صورته وسغر خلقته ودقة وجهه وصغر عينيه وأسمع بمحله من الواثق والمتوكل فأعجيب من ذلك وأقول: بأى سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظى عنده والقرد أملح من قباحته؟ فلما جالست المتوكل رأيت على بن يحيى قد دخل على المتوكل فى غداة من الغدوات التى قد سهر فى ليلتها بالشرب، وهو مخمور يفور حرارة. يستثقل لكل أمر يخف دون ما يثقل، فوقف بين يديه وقال: يا مولاى! أما ترى إقبال هذا اليوم وحسنه إطباق الغيم على شمسه وخضرة هذا البستان ورونقه، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمزورز (يوم هرمزد إله الخير) وتعظمه غلمانك وأكرتك مثلى من الدهاقين، ووافق ذلك يا سيدى أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتخل بالفرح، فهش إليه وقال: ويلك يا على! ما أقدر أن أفتح عينى خمارًا، فقال: إن دعا سيدى بالسواك فاستعلمه وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من رب الحصرم أو من متنة مطيبة مبردًا ذلك بالثلج انحل كل ما يجد. فأمر بإحضار كل ما أشار به فقال على: يا سيدى وإلى أن تفعل ذاك تحضر عجلانيتان بين يديك مما يلائم الخمار ويفتق الشهوة ويعين على تخفيفه، فقال أحضروا علىا كل ما يريد. فأحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج قد صففت على أطباق الخلاف، وطبخ حماضية وحصرمية

ومطجنة[1] لها مريقة فلما فاحت روائح القدور هش لها المتوكل فقال له: يا على أذقنى. فجعل يذيقه من كل قدر بجرف يشرب فيها. فهش إلى الطعام وأمر بإحضاره، فالتفت على إلى صاحب الشراب فقال له: ينبغى أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحانى ويزاد مزاجه إلى أن يدخل فى الشرب فيهنئه الله إياه إن شاء الله. قال: فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا إلى مجالسنا وغنى المغنون فجعل على يقول: هذا الصوت لفلان والشعر لفلان، وجعل يغنى معهم وبعدهم غناء حسنًا إلى أن قرب الزوال، فقال المتوكل: أين نحن من وقت الصلاة؟ فأخرج على اصطرلابًا من فضة فى خفة، فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت، فلم يزل يعظم فى عينى حتى صادر كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن. فقلت لأمر ما قدمت: فيك ألف خصلة - طبيب ومضحك وأديب وجليس وحذق طباخ وتصرف مغن وفكر منجم وفطنة شاعر.. ما تركت شيئًا مما يحتاج إليه الملوك إلا ملكته"

وعلى بن يحيى هذا هو الذى ذكر ياقوت قبيل ذلك أنه "كان بكركر من نواحى القفص ضيعة نفسية لعلى بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة بقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى. فقدم أبو معشر من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شىء من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهالة أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى الحد، وكان ذلك آخرة عهده بالحج وبالدين والإسلام"

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها.

---

(١) يراجع كتاب الأطعمة الموجود منه نسخة فوتوغرافية بالمكتبة المصرية لمعرفة معظم هذه الأصناف وطريقة تحضيرها.

والحديث الذى نقله ياقوت مظنه للزيادة والتأليف فى بعض أجزائه، ولكنه يدل فى جملته على المناقب والخصال التى كانت تطلب من النديم فى ذلك الزمان، وترى من هذا الحديث كيف كانت سنة الفرس غالبة على مجالس الطرب وآدابها ومواعيدها وأدواتها، كما ترى ذلك من أوصاف المهرجانات والنواريز وأعياد الطبيعة ومنازة الرياضة والألعاب والصيد والطرد وسائر المراسم والأزياء.

***

إذا تلخصت الحالة السياسية فى سوء الظن فقد تتلخص الحالة الإجتماعية فى اغتنام الفرصة، وأن هذا وذاك فى الحالتين لكا لشىء وظله أو كالصوت وصداه.

الحالة الفكرية

قال ابن قتيبة فى مقدمة كتابه "أدب الكاتب" يصف حالة عصره من العلم والأدب:

"إنى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين. أما الناشىء منهم فراغب عن التعلم والشادى تارك للازدياء والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس، ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين. فالعلماء مغمرون وبكرة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عارًا على صاحبه، والفضل نقصًا وأموال الملوك وقفًا على شهوات النفوس والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق، وآضت المروءة فى زخارف النجد[1] وتشييد البنيان، ولذات النفوس فى إصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان، ونبذت الصنائع[2] وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر

(١) الأثاث والفراش. (٢) جمع صنيعة وهى البر.

وسقطت همم النفوس.. فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتًا فى مدح قينه أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئًا من تقويم الكواكب وينظر فى شىء من القضاء ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب، وهو لا يدرى من نقله. قد رضى عوضًا من الله ومما عنده بأن يقال فلان لطيف وفلان دقيق النظر: يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهى به أليق! لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون. ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب وفى أخبار الرسول وصحابته وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم. فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفرودة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة - راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإن طالعها لم يحل منها بطائل! إنما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم، والكلام أربعه أمر وخبر واستخبار ورغبة: ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر! والآن حد الزمانين! مع هذيان كثير.. ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم، أو يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة فصل الخطاب... فلما إن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظًا من عنايتى

وجزءاً من تأليفى، فعلمت لمغفل التأديب كتب خفافًا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيته من التطويل والتثقيل. . . وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ومن الكتابة إلا بالإسم ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شذا شيئًا من الأعراب فعن الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئًا من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك. ولابد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسى والمدورات والعمودين، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى والعمودين، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين. وكانت العجم تقول: من لم يكن عالمًا بإجراء المياه وحفر المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر فى استهلاله وإقفاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب كان ناقصًا فى حال كتابته. ولابد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث، ليدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب ويصل بها كلامه إذا حاور، ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة، فإن القليل معهما بإذن الله كاف والكثير مع غيرهما مقصر".

هكذا كان حكم ابن قتيبة على عصره.

وابن قتيبة أديب لغوى فقيه ولد فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ومات فى سنة ست وسبعين ومائتين، ونشأ وعاش فى بلاد العرق. فهو معاصر ابن الرومى فى زمنه وقرينه فى وطنه وشاهد عيان لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات أهله.

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ فى حكمه؟

لم يصب كل الصواب ولم يحظى كل الخطأ، وأيا كان حظه من الصواب أوالخطأ فقد مثل عصره أحسن تمثيل ينظر إليه صاحب الأدب واللغة والفقه، وغاب عنه ما وراء ذلك من نظر لا يحيط به الذين يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة.

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشتغل به أبناء عصره أو لا يشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة، وأنك تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها، لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطًا فى الكاتب والأديب لا تتم بغيرها كتابته وأدبه. حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه فى حاجة إلى إظهار مساهمته فى هذه المعرفة وهو يدعو إلى علم اللغة والكتابة ، لئلا يستجهل ويعرض عنه.

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم على عصره، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحًا لإنصافه والإحاطة بجميع نواحيه، فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل فى رؤية البعيد، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريب إلا اليسير. كالناظر إلى القمر فى المنظار يرى جزءًا منه كبيرًا مفصلا ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظرة على ما حوله. ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبر وصغر وتناول المقياس ليقدر فأخطأ فيما قدر.

أخطأ ابن قتيبة فى شرح حالة العلم والتفكير بين أبناء عصره لأسباب متعددة: منها أن العلم لم يكن منهجًا واحدًا فى ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج الفرق أهل السنة المتشددين فى إنكار البدع، ومنهج الفرق الإسلامية التى تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافية بينها، ومنهج العلون الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار، ومنهج المتأدبين المتطرفين

الذين يقتبسون كل قبس ويستطرفون كل طرفة. إلى غير ذلك من المناهج التى تتقارب وتتباعد على نحو ما نعهد فى زماننا الذى نحن فيه.

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده فى العراق لأنه كان مجمع العواصم وملتقى العرب والعجم ومثابة العلماء والأدباء من جميع الطوائف والمذاهب، فرأى ابن قتيبة هو رأى المتشددين أنصار العلوم العربية لا يرون غيرها إلا فضولاً أو كالفضول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما إليها إلا لغوًا قصاراه أن يلغط اللاغط بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والعرض مع "هذيان كثير".

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فرق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافًا من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذى لا يزدرى، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتى نعاها على الإغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم، فلا يقولها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الأطراف.

ومن الأسباب التى باعدت بين الأديب اللغوى والإصابة التامة فى تمثيل عصره أنه كان أديبًا ولغويًا، وكان سبيل العلم بالأدب واللغة أن يتحرى الطالب ما تقدمه وأن يرتقى فى تحرى القدم إلى أبعد عصوره. فلا ينظر العصور التى خلفت بعد العرب الأسبقين إلا على أنها عصور نازلة منحدرة تمعن فى الجهل والإسفاف بمقدار إمعانها فى البعد من العربية الجاهلية! فعنده أن السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للمتأخرين إلا أن ينعوا زمانهم ويأسوا على ما فاتهم! وكل زمان هو شر الأزمنة فى أوانه وخير الأزمنة - أو من خيرها - متى لحق بالماضى العريق! وما برح ذم الإنسان عصره وانتقاصه إياه ديدن كل أديب فيما غبر وديدن بعض الأدباء فى هذه الأيام. فابن قتيبة إنما جرى على هذه العادة التى لا تستغرب فى عهد البداوة العربية وفى عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع إلى القديم.

على أن الرجل لو تجرد من هذه العادة لبقى سبب آخر لعله كان يمنعه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع أخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم. فربما كان بعض الجهابذة فى أيامه متباعدين متفرقين فى أقطار ذلك الملك الواسع لا يسمع إلا لمامًا، وربما كان القريبون منه فى طريق العمل فلم يستووا بعد على غاية ولم يلبسوا بعد هالة الخلود والشهرة، وذلك فضلاً عن الذين جاءوا بعده بقليل. فهو لا يعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم.

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم فى بلاد الإسلام قاطبة، لأنه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الإسلامية كلها كاملة مفروغًا من وضعها وترجمتها وتحضيرها غير مستثنى منها علوم السنة والعربية التى كان ابن قتيبة يتوفر عليها.

ففى القرن الثالث تمت المذاهب الأربعة فى الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخارى ومسلم وأبى داود وابن ماجه والترمذى والنسائى، ونزعت السياسة التى تأيد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل. ثم انتهى القرن بظهور أبى الحسن الأشعرى الذى مال من مذهب المعتزلة إلى مذهب أهل السنة فقيل فيه "كان المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى فحجزهم فى أقماع السمسم". ولم يخل علم من العلوم القديمة أو الحديثة من أعلام نبغوا فى القرن الثالث أو حضروا أوائله، حتى العلوم العربية التى كان ابن قتيبة يتهم القوم بإهمالها والجهل بفضائلها: وهى علوم الرواية والنحو واللغة والأدب. فمن رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفراء، وابن السكيت، وقطرب، وابن الأعرابى ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازنى وثعلب والزجاج والمبرد وابن الأنبارى وابن دريك والأخفش والسجستانى والصولى والرياشى وأبو سعيد البكرى وقدامة بن جعفر وابن أبى الدنيا وابن العلا السكرى وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء أو يقلون عنهم فى الطبقة والشهرة.

أما العلوم الأخرى فقد تأسس فى ذلك القرن التاريخ والجغرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغرافيين البلاذرى واليعقوبى وأبو حنيفة الدينورى وأبو زيد البلخى والطبرى وابن البطريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته وبزرك بن شهريار وآخرون، وكان من فلاسفته الكندرى والفارابى وابن سينا، ومن أطبائه الرازى وابن سهل وابن ماسويه، وراج علم النجوم حتى أوشك ألا يكون فى ذلك الزمن إلا منجم!

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الأعلام فى مناهج العلم المختلفة بل تجاوزه إلى طوائف الناس من خاصة عامة. فتحدثوا بالعلوم واشتغلوا بمحاوراتها ومنظاراتها وأقبلوا على اقتناء كتبها، فكان العصر عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة فى مسائل البحث والمطالعة وشاع ذلك بين الناس أوسع شيوع، حتى كان الرجل منهم يجمع بين أشتات الثقافة فى زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن على بن يحيى المنجم أو كما ترى من قول ابن الرومى فى رجل يصفه بدعوى العلم فى معرض الهجو والتهكم:

قولا لطوط أبى على ... بصرينا الشاعر المنجم
المنذر المضحك المغنى ... الكاتب الحاسب المعنم
الفيلسوف العظيم شأنًا ... العائف القائف المعزم
الماهن الكاهن المعادى ... فى نصر إبليس كل مسلم

وبلغت هذه النهمة العلمية حدًا أضجر الظرفاء كما أضجر المتشددين، فكان الفتى المهذب يومئذ إما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو مشاركًا فى هذا وذاك أو ظريفًا ضجرًا من أكثر هؤلاء على حد وصف ابن المعتز:

قليل هموم القلب إلا للذة ... ينعم نفسًا آذنت بالتنقل
فإن تطلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل

يعب ويسقى أو يسقى مدامة كمثل سراج لاح فى الليل مشعل
ولست تراه سائلا عن خليفة ولا قائلاً من يعزلون ومن يلى
ولا صالحًا كالعير فى يوم لذة يناظر فى تفضيل عثمان أو على
ولا حاسبًا تقويم شمس وكوكب ليعرف أخبار العلو من سفل
يقوم حرباء الظهيرة مائلاً يقلب فى اضطرلابه عين أحول
ولكنه فيما عناه وسره وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

والظاهر أن علم النجوم والرياضات على الجملة كان أروج العلوم الحديثة وأكثرها طلابًا، لطرافته، وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع الحضارة العربية الفارسية التى كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعود والنحوس، ولم يكن الإيمان بالسعد والنحس والزجر والقيافة غريبًا عن العرب فقبلوا العلم الحديث غير متعسرين، وأفرطوا فيه ذلك الإفراط الذى لم يرض عنه ابن قتيبة ولم يرض عنه ابن المعتز، وهما فى هذا المقام طرفان!

وربما كان من تمام البيان عن آراء المتعلمين يومئذ فى فنون العلوم المختلفة أن نأتى هنا على رأى "النجوميين" فى أنصار القديم كما أتينا على رأى أنصار القديم فى النجوميين. فقد كان هؤلاء يهزأون بالمتشددين كما كان المتشددون يهزأون بهم، وكانت لهم فى التنادر بالقوم دعابات ونكات أظرفها ما وضع فيما نظن على لسان أحمد ابن ثوابة الكاتب المعروف فى زمنه وجمعت فيه نكات العصر على كارهى الهندسة والرياضة وما إليها. قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين[1]: "... إن صديقًا لابن ثوابة الكاتب أبى العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم: إنك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسى وعلى الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت إقليدس وتدبرته! .."

(١) راجع معجم الأدباء فى ترجمة ابن ثوابة.

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوابة أنه كتب إلى صديق له سأله عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحوقلة واستعاذة بما يأتى:

" . . . فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الذر، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله ثم أعلن عليها جاهراً بافكه وأقبل على وقال: أيها الرجل! إن هذه النقطة شيء لا جزء له، فقلت: أضللتنى ورب الكعبة وما الشيء الذى لا جزء له؟ فقال كالبسيط. . . فقلت أنا: وما الشيء البسيط؟ فقال كالله والنفس! فقلت له إنك من الملحدين. أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون؟. . فلما سمع مقالتى كره استعاذتى فاستخفه الغضب فأقبل على مستبسلا وقال: إنى أرى فصاحة لسانك سبباً لعجمة فهمك، وتذرعك بقولك آفة من آفات عقلك. فلولا من حضر والله المجلس وإصغاؤهم إليه مستصوبين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه إياهم بخدعه وما تبينت من توازرهم لأمرت بسل لسان اللكع الألكن وأمرت بإخراجه إلى حر نار الله وسعيره. . " .

ومضى ابن ثوابة يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصرانى وكيف استعظم هذا المعلم المسلم عليه أن يدرك النقطة، وقال له:

"وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة! . . وأخذ يخط وقلبى مروع يجب وجيباً وقال لى غير متعظم: أن هذا الخط طول بلا عرض، فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت له قاتلك الله! أتدرى ما تقول؟ تعالى صراط ربى عن تخطيطك وتضليلك! إنه لصراط مستقيم وأنه لأحد من الشيف الباتر والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون: أتطمعن أن تزحزحنى عن صراط ربى وحسبتنى غراً غبياً لا أعلم ما فى باطن ألفاظك ومكنون معانيك؟ والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الأضلة بالصراط المستقيم لتزل قدمى عنه وأن

تردينى فى جهنم! أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تدل عليه وترشد إليه. . . إنى برىء من الهندسة ومما تعلنون وتسرون" .

فهذا مثل بارع من السخرية التى كانوا يقابلون بها سخرية القوم من المنطق والنجوم. والكتاب على ما فيه من الصورة الهزلية يدل بين سطوره على حقائق كثيرة: منها استفاضة تلك العلوم وجلالة خطرها بين المتأدبين حتى أن رجلا كابن ثوابة بلغ من المكانة والسن مبلغه يخف إلى تعلمها ويحسب أن مروءته لا تكمل بين ذوى العلم بغير درسها، ومنها أن أشياعها كانوا من الكثرة وأن أساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوابة أن يجد فى مجلسة رجلا واحداً يؤازره ويرضى له أن يهين المعلم الذى جبهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع فى داره. وليس يخفى أن الهزل كالغضب كلاهما مصور مبالغ موكل بالغلو فى التكبير والتصغير، فلا المتشددون كانوا كما مثلهم لنا أبو حيان فى دعابته وهزله ولا المشغولون بالحديث كانوا كما مثلهم لنا ابن قتيبة فى نكرانه وغضبه، بيد أننا إذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة فى الزمان والمكان

وسكان دار لا تزاود بينهم على قرب بعض فى المحلة من بعض

وليس يصعب على القارئ أن يتحيل هذه الحالة بجملتها لأنها أشبه شىء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال فى الثقافات وانفصال، أو لعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالى الذين يدخلون العصبية الشعوبية فى هذا الخلاف ويجتهدون فى درس العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية وتضيف إليها ما ليس منها، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جميعًا فى العرب، وألا يستأثر العرب دونهم بكل مأثرة وفضيلة. وقد يشعرون بهذا القصد أو لا يشعرون، ولكنهم حريون أن تميل

بهم ضمائرهم هذا الميل إذا وقع التنافس بين العرب والشعوبية والتمست المفاخر من الجانبين.

الشعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر، وقد يكثر الشعر ولا دراسة للآداب والعلوم. أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعًا لأشتات الثقافة بفروعها، كثير الآداب والعلوم كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار.

عاش فى ذلك القرن - ولا سيما أوائله وأواسطه - نخبة من جلة الشعراء النابهين كأبى تمام والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن الجهم ودعبل الخزاعى وابن المعتز وابن الرومى، وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين والمحترفين وغير المحترفين، وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع فى بعض أغراضه. فالخلفاء كانوا ينظمون للغزل والغناء، والأمراء والوزراء سواء منهم الفرس والعرب - كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشىء الكثير، والمنتمون إلى الفرس والأعاجم كانوا أسبق إلى المنافسة فى هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة ويدخلوا مع العرب فى ميدان الفصاحة: ومن الأمراء الفرس الذينى مدحهم ابن الرومى من وضع كتابًا فى الشكر ضمنه مختارات مما قبل فى هذا المعنى وختمه بأماديح يطرى بها صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم، ونعنى به عبيد الله بن عبد الله ابن ظاهر عميد بيته العريق الذى تخرج منه كبار القواد والولاة.

لهذا كان ابن الرومى يقول وهو يشكو:

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء

لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بالعطف من جانب هؤلاء.

وندر فى ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التى أجلمنا

وصفها فيما تقدم. فمن لم تظهر فى شعره المعانى الفلسفية والآراء الطريفة التى سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى التى كشفها البحث فى أشعار المتقدمين وأدت إليها المعارضة بين أقوال الفحول واستطلاع أسرار البلاغة فيما أجادوه، ومن لم يظهر فى شعره هذا وذاك ظهرت فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى من أساليب الكتاب فى النثر المنمق وأساليب التحية فى المجالس وأساليب المعيشة فى القصور، وربما عرضت الكلمة الفارسية فى البيت العربى مما له المرادفات بالعشرات كقول شاعرنا:

يا أيها الملك الذى فى برده قمر وشير

يعنى الأسد . .

وربما نظموا فى أوزان الشعر الفارسية كالدوبيت والرباعية، أو نفننوا فى التمسيط والتوشيح والازدواج على نحو ما نراه من كلف بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض.

وامتاز هذا العصر على العصر الضى تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعر تمييزًا له من العناية بنظم الشعر نفسه. فقد كان الشعراء المولدون: يأتون بالمحسنات البليغة عفوًا أو محاكاة للأقدمين أو تصرفًا فى الاختراع، ولا يسمون هذه المحاسن بأسمائها أو يستخرجون منها علمًا مرتبًا على أقسام معززًا بشواهد، وسبق فى هذا المجال أمثال بشار ومسلم والعتابى وأبو نواس، وتلاهم أبو تمام وتلامذته فى أوائل القرن الثالث. ثم تمكن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من عقول الأدباء، وكتب الجاحظ وقدمه بن جعفر وابن المعتز فى هذه المعانى فإذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأسماء.

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة فى الشعر كالنظرة التى رواها صاحب زهر الآداب عن الحاتمى إذ يقول:

"مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد من الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراسًا يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وإعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء. وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفطارهم واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا دراسه، فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا إلى كذا وقصارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجابة والنجاء، وأنه امتطاها فادرع عليها جلباب الليل، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يتعمده، إلا أن طبعه السليم وصراطه فى الشعر المستقيم نضى تياره وأوقد باليفاع ناره" إلى أن يقول بعد أبيات أوردها للنابغة الذبيانى:

"وهذا هو كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره ولا يتميز منه شىء عن شىء . . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى وفتحوا أبواب البديع واجتنبوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزًا عجبًا".

فهذه النظرة تريك أثر البديع فى كتابتهم وفى نقدهم القصيد، فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصيد إلى معنى يراد ويفهم، وأما النقد فمذهبهم فى حدة الأغراض واتصال الأجزاء لا يخالف مذهب المعاصرين إلا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب، وعذرهم أن المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذٍ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع.

وغنى عن القول بعد هذا أن "التنبيه" كان هو السمة الغالبة على الشعر كله فى ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد، فكان شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامد لترتيب أبياته عارف بمواصع التجويد فى لفظه ومعناه، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كل ما هذه الطريقة من المآخذ والفضائل ومن عناصر الضعف والقوة.

وتغيرت أغراض الشعر فهذا الذى يقول فيه ابن قتيبة أنه لا يعدو مدح قينة أو وصف كأس . . ! وإنما كان هذا الإمام الناقد الذى درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكراً مستصغراً يرى الشوهة ويغمض عن الحسنة. ولولا ذلك لرأى أن الشعر قد كان يعدو مدح القيان ووصف الكؤوس إلى أغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل فى كل معرض من معارض الحياة فى ذلك الزمان، ولم يقل فيها إلا ما كان وقفًا على أغراض البداوة وأيام الجاهلية الأولى. لأن هذه البداوة قلت فلم يكن لها نصيب من الشعر إلا القليل.

لكنا نخاله كان على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الأدب عامة عند الملوك والأمراء، فاشتغال هؤلاء الملوك والأمراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شيء وأجازتهم عليه الجوائز النسية شيء آخر. إنما كانوا فى عصر ثقافة يود فيه كل امرئ كامل المروءة أن يعرف كل ما يعرف من الآداب والفنون والملاهى، فإذا تعلموا الشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشعوذة وطرائق التفكهة والإضحاك فى مجالس السمر، ولا يلزم من ذلك أن يكون لهذه الأشياء أو لأهلها المنقطعين لها خطر فى نفسه.

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر فى زمن كانت الوزارة فيه والكتابة - أو صناعة الأدب - فنًا واحدًا وشارة واحدة، وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالحظوة عند الخلفاء، ولكن أموراً كثيرة طرأت فى أواخر ذلك العصر كان من جرائها تطفيف أرزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة

النظراء وقلة النصراء: ومنها توزع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذى كان مستأثراً بجل عناية العرب فى صدر الدولة الإسلامية، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجيح صفة النديم على صفة الشاعر إذا تعذر الجمع بين الصفتين، ومنها قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم واللذات وشاعت الإباحة والمجون، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد أصابه وأصابهم ما يصيب كل كثير من الرخص والبوار، ومنها أن الدعوة السياسية خرجت كلها - أو أغلبها - من أيدى الشعراء إلى أيدى الدعاة الذين تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها أيام العباسيين والعلويين شأوا من البراعة والإتقان قلما يفاق فى عهد من العهود، ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية فى أواسط القرن الثالث بين عصرين سعيدين فات السابقق ولم يأت بعده أوان اللاحق: ونعنى بهما عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطد المرجو المخوف، وقد ذهب. وعصر الأمراء الذين تقسموا المملكة واستقر كل منهم على جزء منها وتنافسوا بينهم فى اجتلاب الشعراء والتشبيه بالخلفاء، ولم يأت بعد!

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك، وربما كان هذا سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المحيدين فى الربع الأخير من القرن الثالث، والرابع الأول من القرن الذى تلاه.

الدين والأخلاق

إذا عرفت حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء.

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام فى زمانه، وظاهر بعد ما تقدم أن الدين فى القرن الثالث لم يكن "دين الفطرة" الذى يؤمن به شعب لم يعرف الترف والفساد، ولم يشهد من ولاته ألا العدل

والاستقامة، ولم يتعود أن يناقش نفسه فى عقيدته وعقيدة غيره. فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لا محيد عنها فى أمثال تلك الأحوال.

كتب مسيرة بن حيان السمرى إلى أحمد بن سليمان ابن أبى شيخ يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته:

دخلتنا الشكوك يا ابن أبى شـ ـيخ بأى الأديان أنت تدين
وإلى أيها تميل ابا جعفر كم ذا الهوى وذا التلوين؟

فأجابه عنه ابن الرومى:

يا ابن حسان لا تشكن فى د يق الذى بلغ الرسول الأمين
فهو توحيد ذى الجلال وتصد فأعد عنى وانظر لنفسك دونى
ينى، ولا تقتسمك فى الظنون ليس يجزى سواى عما أدين

وسؤال ابن حسان مغزاه. فما كان له من محل لو أنهم كانوا يصدقون أن الرجل فى زمانهم يبطن ما يظهر ويؤمن بالدين الذى يؤمن به الناس كافة. فكأنما كان المفروض فى طائفة من الناس أن يطوفوا سرائرهم على مذهب غير مذهب الإجماع وسر فى الاعتقاد غير الذى يبدونه علانية من "توحيد ذى الجلال وتصديق الذى بلغ الرسول". وليس بعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحل والأحزاب والعصبيات والدعوات والبحث والتفسير. فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة إلا كان لها أنصار ولأنصارها شأن ما فى بعض الجهات. ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الإسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة. وما كان أكثرها من نحل وأشده من لهج بالانتحال!! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضًا للنحل ومستبقيًا للمشاقة بين المنتحلين!! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسنة باختلاف أقوال المجتهدين فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها، وفيه ما بين هذا وذاك أشكال من التدين يجىء بها

دخول الفرس والروم والديلم فى الإسلام عمداً أو على غير عمد. فبعضهم كان يسلم وهو فى الباطن على دين آبائه، وبعضهم كان يخلص فى إسلامه ولكنه ينتقل إلى دينه الجديد موروثات دينه القديم، وذلك فضلا عن النصارى واليهود وعباد الأوثان. وكلهم على اختلاف فى المذاهب والعصبيات كهذا الاختلاف، فغير مستغرب أن يسأل المرء عن دخيلة رأيه وباطن اعتقاده فى هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان.

إلا أننا نخطئ أشد الخطأ إذا فهمنا من هذا أن الإباحة حلت محل الدين فى تلك الفترة فتعفى أثره وبطل سلطانه. فإن مداراة الآراء التى تخالف الإجماع لا تدل على ذلك بل لا تدل إلا على نقيض ذلك، والمعهود فى أمثال تلك الفترة أنها تقتل الغلو فى التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب، كأن الإحساس بالخطر على العقيدة يحرك بواعث الغيرة عليها ويزعج النفوس إلى المنافحة عنها، فإذا رأيت الإباحة والترخص فى جانى لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد فى الجانب الآخر، ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لأنه جانب العادة الخالدة والعدد الأكثر.

وربما لاح للناس أنهم نبذوا الدين فما يشعرون إلا وهم يلبون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون فى أنفسهم أنهم غير متدينين! ولقد كان مع الترخص فى إباحة اللذات أناس غالون فى النهى عنها يثورون على أصحابها فى الحين بعد الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان. ومن هؤلاء فئة ببغداد خرجت - بعيد مولد ابن الرومى - تهجم على البيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان، وكان ينادى فى بغداد قبيل وفاته - أى فى سنة تسع وسبعين ومائتين - "لا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاص ولا منجم ولا زاجر" وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكالم والجدل والفلسفة.

بل كان ابن الرومى إذا ذكر الخمر فى مديح أمير أسرع فاستدرك قائلا أنها الشراب الحلال لا الشراب الحرام:

لا المدام الحـــرام لـكن حــلال سـؤر نار يحـثـهـا طابخـان

شارك الخـمر فى اسمـها ليس إلا إن أدامــوه مـثلهـا فـى الدنان

وحكـاها فى اللـوم والريح والـطـ ـعم ولطف الدبيـب فى الجثـمـان

فـهو لا خـمر فى الحـقـيقـة لكن هو خـمـر فى الظن والحـسـبان

ومثل هذا لا يقال إلا وللدين هيبة وللفرائض رعاية

وهناك الضـمائر التى لا تقـوى على الشك لأنها تسـتريح إلى التـسليم والاتكال، فهى أما أن تهرب من الشكوك والأقاويل إلى إيمان بسيط لا لحاجة فيه، أو تهرب منها إلى اللهو والمؤانسة ومـا يعنيها فى الحاضر بين يديها لحظة بعد لحظة، كما قال ابن المعتز:

ولكنه فيـــما عناه وســـره وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وأصحاب هذه الضمائر هم - حين يحسبون - أقرب إلى المؤمنين منهم إلى المتشككين.

وما يقال فى الدين يقال فى الأخلاق. فـلا ريب فى أن السياسة القائمة على السلب والغيلة، والآداب القائمة على مـا رأيت من الشك والتشعيب - قلما تبـقى للنفوس بقـية صالحـة من الأخلاق ومسكـة عاصمـة من الغواية. ولكننا حـريون أن نذكر أن نفـوس الدهماء مطبـوعة علـى العزاء، وأن أكـبر العزاء لها فى هذه الفترات أن تحسب الغواية والرذيلة من مساوئ الغنى والجاه وتعتـصم هى بالصبر والرجاء، وفى بنـية الأمة أبدًا مثل مـا فى بنية الحى من العوامل المكافحة للفساد التى لا تنى تصون الجسم زمنًا ولا تبرح تلهم وطائفه السـداد وأن ضل العـقل وأنحى على الجـسم بما ينـهكه ويرديه. فـتظل هذه العوامل ناشطة فى بنية الأمة ولو تراءى للنظر من مشـارفة بعض الطبقات أنها وقعت فى الاضـمحلال. فلا يحـسن بنا أن نبالغ فى تضخيم شـأن الفوضى التى ابتليت بها العقـائد والأخلاق فى تلك الفترة الشاذة المتناقـضة. فهى ولا

ريب كبيرة وبيلة ولكنها ليست اكبر ولا أوبل سما قد يعترى أمما كثيرة وتواتيها بعده أسباب السلامة.

ذلك عصر ابن الرومى بخيره وشره وزيادته ونقصه. لقائل أن يقول فى أطواره ما شاء أن يقول، وأن يختلف فى أوصافه ما شاء أن يختلف، ولكن وصفا واحدًا من تلك الأوصاف لا يجوز فيه أقل اختلاف: ذلك أنه كان فى خيره وشره عصرًا حيًا يصنع التواريخ وليس بالعصر الميت الذى يطويه التاريخ فى ثناياه.

وقد وضعنا له حدودًا من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب، ولكننا لم نرد بتلك الأرقام إلا أن تكون معالم فى طريق الزمن يهتدى بها إلى البدايات والنهايات، وليست هى البداية والنهاية ولا هى محور الابتداء والانتهاء.

***